حقاً أن يضحي بملكوت الحياة الطبيعية من أجل أن يكسب ملكوت الفن؟ لقد برهنت التجربة الإنسانية الكبرى بمجموعها، كما برهنت معظم آثار التراث الأدبي الذي استند عليه الحكيم نفسه، على خطل هذه المعادلة العجيبة التي طرحها الحكيم، وحاول جاهداً أن يقنعنا بصحتها، وهي المعادلة التي مؤداها «أن الفن يخرج من النافذة إذا دخلت المرأة من الباب!»، وسجل الأدب العالمي حافل بأسماء مؤلفين استشهد بهم الحكيم في مؤلفاته[67] وكانوا ينظرون بكل احترام إلى العلاقات الطبيعية بين الرجل والمرأة. وأسماء «جوتة» و«أناتول فرانس» و «تولستوي» تؤكد لنا ذلك. فالتناقض بين الحياة ـ الحياة التي تمارس فيها المرأة دورها الطبيعي ـ وبين الفن الذي يعيش فيه الفنان عالمه الذاتي الخاص، غير قائم بالضرورة. ووجود الأول لا يؤدي بالضرورة إلى نفي الآخر، فما السبب الذي جعل «توفيق الحكيم» يتخذ ذلك الموقف يا ترى؟.

إن دراسة حياة الحكيم خاصة تقدم لنا شطراً من الجواب. لكن معلوماتنا عن هذا الموضوع قليلة، ولا تريد عن معرفة التجارب الخاصة التي ذكرها الكاتب في مؤلفاته، بعد أن أضفى عليها المسوح الفني الذي يجعلنا نتردد في النظر إليها بوصفها وثائق نهائية لا يتطرق إليها الشك. إلا أن ما لا بد من ذكره هو أن الحكيم كان متأثراً بماضيه في طفولته، وبتكون شخصيته الرومانسية المحافظة، وبتجاربه العاطفية المبكرة مع المرأة. ومن يدري، فلعل طيف أمه القاسية التي حطمت موهبة أبيه بنظراتها القاتمة ومعاملتها الشاذة، وجهلها قيمة الموهبة الفنية هو الذي انطبع في ذهنه، وحدد موقفه من المرأة بصفة عامة فيما بعد. وهذا ما يستأنس إليه «أمين محمود العالم» الذي يذهب إلى أبعد من هذا فيرى أن أثر والديه لا يتجلى في كتبه الأدبية فحسب، وإنما يتجلى أيضاً حتى في كتاباته الفكرية مثل «التعادلية»[68].

إلا أن دراسة الجانب الاجتماعي الذي كانت مصر تعيشه تجعلنا نفهم بعض أسباب هذا العزوف الشاذ، والابتعاد عن عالم الأرض، لقد ذهب الحكيم إلى بلاد الغرب (وفرنسا تحتل صفحات طويلة من مؤلفاته كما نعرف)